مقدمة

إن التحليل الإبداعي للدلالة هو في مبدئه ومنتهاه تحليل لغوي أسلوبي Stylolinguistic Analysis. وليس الاختلاف بين محلل الأسلوب ومحلل الدلالة اختلافًا في المنهج، ولكنه اختلاف في الغاية، فمحلل الدلالة لا يختار سماته اللغوية من أجل أهميتها اللغوية في ذاتها، أعني من أجل إسهامها المجرد في تشخيص السمات الأسلوبية الكيفية العامة للنص، ولكن من أجل الكشف عن تأثيرات تلك السمات اللغوية في إبداع المعنى؛ أي من أجل الكشف عن الفعل الإيجابي الخاص بكل سمة منها، في التعبير عن المعنى تعبيرًا جماليًا موحيًا، في مقابل التعبير التوصيلي العرفي المباشر. وتلك مقابلة أخرى بين الفني المؤثر والعرفي الموصل.

ويتوقف نجاحنا في الكشف عن دور كل سمة لغوية في إبداع الدلالة على عدة عوامل منها: قدرتنا على حصر تلك السمات اللغوية ذاتها، ومنها صحة الأساس الذي يبنى عليه الحصر والتحديد علميًا. وهنا ينبغي أن تكون التصورات والمفاهيم التي نحدد على أساسها دور كل سمة في إبداع المعنى واضحة محددة من الناحية النظرية والإجرائية. ومنها — وهذا هو أهم العوامل — قدرتنا على تحويل الاستجابات والانطباعات التي تثيرها كل سمة، أو لنقل الآن كل مثير Stimuli، إلى مفاتيح موضوعية لفهم النص وتذوقه وتحليله.

وغني عن البيان أن البحث في إبداع الدلالة ووسائله، هو في جوهره بحث في (المثيرات اللغوية) الدالة في النص، سواء أكانت أصواتًا أم مفردات أم تراكيب أم قرائن مجازية. وهذا إجراء لغوي وصفي محض، يفتقر — في النص الأدبي بخاصة — إلى التغير الأسلوبي الذي يتغيا الكشف عن قيمة المثير اللغوي الدال، وبيان دوره في إبداع الدلالة.

وإذا كانت الدلالة بعامة هي جوهر كل تحليل لغوي وغايته، فإن دراسة هذه الدلالة على المستوى الإبداعي — بخاصة — بمنهج لغوي أسلوبي هي جوهر الجوهر أو غاية الغايات.

ولا ينبغي أن تثير كلمة (إبداع) في أنفسنا إحساسًا بصعوبة ضبط العناصر المبدعة في النص، لأن المنهج اللغوي الأسلوبي الذي ننتهجه في هذه الدراسة منهج

موضوعي، بمعنى أن كل من يعيد تحليل المادة المدروسة بهذا المنهج نفسه، سوف يصل إلى النتيجة نفسها.

والمادة المدروسة هنا تمتد إلى مائة وخمسين عامًا أو مائتين قبل الإسلام. هي مادة الشعر الجاهلي في عمومها. والشعر الجاهلي لا يغني معه النظر إليه باعتباره معينًا زاخرًا لاستخراج قواعد اللغة، أو مادة ساكنة يستدل بها على حضارة البيئة، وأيام العرب، وطرائق حياتهم ومعاشهم؛ لأنه – قبل كل شئ – إنتاج أدبي بلغ مستوى رفيعًا من الخلق والإبداع.

ولسنا في حاجة إلى تأكيد أهمية دراسة لغة الشعر الجاهلي؛ فهي – ببساطة شديدة – من أهم الوسائل العلمية المساعدة على دراسة اللغة العربية ذاتها وما تتمتع به من إمكانيات أسلوبية وافرة.

ولكن الذي ينبغي تأكيده الآن هو أن هذه الدراسة التي بين أيدينا دراسة (أفقية) لا رأسية؛ فهي تبحث عن (جوهر الشعر) ذاته في الشعر الجاهلي، تبحث عن الإمكانات اللغوية الأسلوبية العامة التي انتهى إليها ذلك الشعر في إبداع المعنى، ولا تهدف إلى البحث عن الإمكانات والقدرات والمهارات الفردية التي أظهرها كل شاعر جاهلي في إبداع هذا المعنى، إلا بقدر ما تحتاج إليه معالجة بعض الظواهر أو ضرورات المقارنة والإحصاء.

إنها دراسة في (جوهر الشعر) الذي يخفى من بريقه في دراسات القدماء المعالجات الجزئية الانطباعية، والذي يخفى من بريقه في أكثر دراسات المعاصرين الانشغال بجدل القضايا التنظيرية أو رصد الأغراض الشعرية وبعض السمات البلاغية في إطار كلاسيكي قليل الجدوى.

وقد فصلت هذه الدراسة أربعة فصول:

تحدثت في الفصل الأول منها عن دور الصوت في إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، وهو من المباحث المهمة التي أهملت طويلاً؛ لانعزال النظر النقدي عن المعطيات الحقيقية لعلم اللغة. وركزت على ظاهرتين اثنتين هما: المحاكاة الصوتية، والتقسيم والموسيقى الداخلية. والحق أن الحديث عن هذه الظواهر لم يكن مبنيًا على الاجتهاد الشخصي والتذوق الذاتي، بقدر بنائه على ما يمكن أن تسهم به قوانين علم الأصوات في الدراسة اللغوية الأسلوبية للمعنى.

في الظاهرة الأولى ميزت بين عدة صور للمحاكاة في الشعر الجاهلي، وصوبت بعض المفاهيم القديمة عن (التنافر الصوتي)، فرأيت لكثير من حالاته أهمية فنية كبرى وأسميته بـــ (التنافر الصوتي الفني).

وفي الظاهرة الثانية، حاولت أن أربط بين عناصرها التقليدية من تشطير وتصريع ونحوهما، وبين وظيفتها الدلالية من جهة، وأن أربط بعض هذه العناصر – كالتصريع – بالحالة النفسية للشاعر، وما يمكن أن يفيده هذا الربط في تفسير بعض الظواهر الصوتية المهمة من جهة أخرى.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن دلالة الكلمة، فتناولت الوسائل التي أثرت في أداء معناها، كالرمز، والإطالة، والترادف السياقي، والتقابل اللفظي، والاستخدامات الشعرية الخاصة، من اختيار وإيثار وابتكار. وهي استخدامات تتبدّى منها المهارة الفردية للشاعر وفعله الإيجابي في تعديل أبنية الكلمات، وإيثار أبنية على أخرى، وتفصيل كلمات جديدة مبتكرة، إذا اقتضى المعنى ذلك. وتدين كل لغة لشعرائها في بعض الألفاظ المبتكرة فيها.

وفي الفصل الثالث تحدثت عن دلالة التركيب، أعني التركيب اللغوي، من قوالب لفظية، ومصاحبات، وتعبيرات، ومزاوجات. وبيَّنت مدى تأثير هذه التراكيب في إبداع المعنى، وما يقدمه بعضها للغة الشعر من قيم الإيجاز والاقتصاد اللغوي.

وقد لاحظت هنا غنى الشعر الجاهلي بنماذج التعبير اللغوي الفني، ونماذج المصاحبات، والمزاوجات المجازية العجيبة.

وفي الفصل الرابع والأخير تحدثت عن دلالة المجاز فبيّنت – على نحو إجرائي تطبيقي – تأثيره في إبداع المعنى الإيحائي، من خلال (الاستعارة) باعتبارها سمة أساسية من سمات لغة الشعر.

ولم يكن خط السير هنا هو ما اعتاده البلاغيون في دراساتهم البلاغية المحضة لأركان الاستعارة وأنواعها التقليدية المعروفة، وإنما نحونا في تحليلها منحى جديدًا، ينهض على أساس تصنيفها تصنيفًا دلاليًا موضوعيًا، غايته الجوهرية هي التفريق بين أنواعها الدلالية المتشابكة، وبيان حدود كل نوع، وأهميته، ومكانته بين الأنواع الأخرى، وتمثيله لفكر الشاعر وخياله وبيئته، وبيان قيمته في تحقيق الاقتصاد اللفظي وإبداع المعاني الإيحائية في آن معًا.

وبالرغم من أن هذه الدراسة قد أفادت كثيرًا من المصادر اللغوية والأدبية والبلاغية القديمة، فإنها قد انطلقت في أساسها المنهجي من بحث الدلالة في ضوء الدراسات اللغوية والأسلوبية الحديثة، اقتناعاً بضرورة التكامل العلمي بين القديم والجديد مهما كانت صورته.

ومع إدراكنا لما حظي به الشعر الجاهلي من بحوث تطول بها القائمة، وإن تفاوتت قدراتها على التعمق العلمي، فإننا نرى أن باب البحث في الشعر الجاهلي مازال مفتوحًا، بل إنه ليتسع يومًا بعد يوم لمزيد من الإسهامات العلمية الجادة.

وإذا كان هذا العمل – بين ذلك الكم الهائل من الأعمال الأخرى – قد أمكنه أن يلقي ضوءاً جديدًا على بعض خصائص الدلالة ومقومات الإبداع الدلالي في الشعر الجاهلي، فذلك حسبه.

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد أبناء العربية من الطلاب والدارسين.

وما توفيقي إلا بالله..

محمد العبد